الوطنيــة من خــلال القصيــدة الليبيــة في الغربــة
(بعض قصائد: سليمان الباروني وأحمد رفيق أنموذجاً)

د. مولود بشير محمد كشلاف
كلية الآداب جامعة الزاوية

تمهيد

منذ بداية الحركة الشعرية في ليبيا التي انطلقت عقب عصر الانحطاط، كرس الشاعر الليبي جهده في تنوير العقول، فأخذا يوجه وينصح ويقترح ويسعى إلى المشاركة في تثقيف مجتمعه، الذي عانى ويلات الجهل والمرض والفقر بسبب الحقب الاستعمارية المتتالية على البلاد، ففي سنة 1510 احتل الأسبان طرابلس، ومن ثمّ تنازلوا عنها لفرسان القديس يوحنا في عام 1535م، وفي عام 1551م استولى العثمانيون الأتراك على زمام أمر ليبيا كاملة تحت مسمى الخلافة الإسلامية، وهذا الاستيلاء استمرّ قروناً طويلة، أي حتى نزول الإيطاليين على الشواطئ الليبية وغزوها عام1911م، [1]ورغم قساوة هؤلاء الدخلاء على الشعب الليبي الذين جعلوا من أبنائه مواطنين من الدرجة الثالثة أو أكثر وهو ما أذكى لهيب الثورات والقلاقل[2] التي توالت آنذاك في هذا القطر العربي الإسلامي على هؤلاء الدخلاء، الذين لم يدخروا جهداً "على تخلفه وعدم مسايرته الركب الحضاري الإنساني، إلاّ أنه حافظ على هويته القومية المميزة"[3]، كما أنّ الكوارث الطبيعية التي حلت بليبيا ضعّفت هي الأخرى المجتمع الليبي وألحقت به الضرر[4]، كل تلك المحن أجبرت الكثير من أبنائه الناجين على اللجوء لدول جوار، وغيرها بحثاً عن الاستقرار والأمان، ومع ذلك كله وبقدر ما كان من اضطهاد وسوء معيشة وعدم استقرار، بقدر ما واكبت البلاد حركة النهوض واليقظة العلمية، التي سرت في ربوع الوطن العربي منطلقة من مصر عقب الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بنابرت سنة 1798م، وفي هذا الوقت كانت الحركة السنوسية قد ظهرت في الشرق الليبي وصارت زواياها العلمية تنتشر في كل ربوع البلاد، بل امتد شعاعها إلى دول الجور كالسودان وتشاد والنيجر، حينها" بدأ الأدب الليبي الحديث في الظهور بقيامها"[5] وزاد ذلك الظهور سطوعاً وانتشاراً ولادة الصحافة في هذا القطر سنة 1866م، ولكن كثيراً من مؤرخي الأدب العربي ونُقاده يرون أن الأدب العربي الليبي انطلق في حياته الفعلية "مع قيام حركة الكفاح المقدس ضد الغزاة الإيطاليين عام 1329ه 1911م؛ حيث بعث هذا الكفاح الحماس في صدور الشعراء العرب في كل مكان"[6] ولكن تبقى الحركة السنوسية هي البيئة الأولى لمنبت الأدب العربي الليبي الحديث ومن ثمّ تليها الصحافة، كما لا يمكن تناسي دور بعض الليبيين الذين درسوا في بعض الأقطار الأخرى، وقد نبغوا وساهموا بنتاجهم في صحافة تلك الأقطار[7] بل كان ذلك أحد الدعامات التي أذكت الحركة الأدبية في ليبيا إذ كان نتاج أولئك الشعراء في بلاد الغربة معبراً عن حقيقة مؤلمة وواقع مرٍ فُرض عليهم من قِبل محتل أجبرهم على الإقامة في أرضٍ غير أرضهم .

لقد كانت هذه القصائد مثالاً للتعبير عن حب الوطن وحرقة البعد عنه وعن الأهل؛ لذلك رأيت أن أقدم في هذا البحث دور قصيدة الغربة في تأجيج عاطفة حب الوطن، لأن الغربة بُعد عن مسقط الرأس والأهل والأحبة وذكريات الطفولة والصِّبا، ولعمري لا يعرف المرء القيمة الحقيقية للوطن إلاّ إذا تغرّب وعاش ردحاً من الزمن بعيداً عنه، ولا يعرف أوجاع الغربة إلاّ من عاشها وقاسى عذابها، ولذا قالت العرب" أَحْمَضُ منْ صَفْعِ الذُّلِّ في بَلَد الغُرْبَةِ"[8] وقالوا أيضاً: "ما فكَّر فيلسوفٌ قط إلا رأى الغُربة أجمَعَ"[9] أي أشق وأتعب، وقال الجاحظ في مدح الكتاب وتخفيف آلم

الغربة: " نعم الأنيس لساعة الوحدة ونعم المعرفةُ ببلاد الغربة" [10] وبما أننا في وقتنا الحاضر نرى أنفسنا وطلابنا خصوصا في أمسِّ الحاجة لزرع بذر الوطنية في النفوس التي تجهلها ولا تحسب لها قيمة. فقد رأيت أن أُشارك بهذا البحث المتواضع لعل وعسى أن يلتفت إليه بعض من لا يعرف معنى للوطنية وما تحويه من قيم عظيمة نستقيها من خلال الإرث الأدبي للآباء والأجداد.

المعنى اللغوي والاصطلاحي للغربة

الغربة من غرب وهو منتهي الشمس وغيابها آخرَ النهار، ومنها جاء الغروب،[11] وقالت العرب: "أَشْأَمُ مِنْ غُرَابِ الْبَيْنِ: ليس في الأرض بارح ولا نطيح ولا قعيد ولا أعصب، ولا شيء مما يتشاءمون إلا والغراب عندهم أنكد، واشتقوا من اسمه الغربة"[12].

والغربة في الاصطلاح هي الاغتراب، وأجمع العلماء على أنها النزوح عن الوطن لغرض طلب من المطالب وفي الحديث: قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ")[13]معنى الحديث: إن الإسلام بدأ غريباً حينما دعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الناس إليه، فلم يستجيب له إلا الواحد بعد الواحد، فكان حينذاك غريباً بغربة أهله، لقلتهم وضعفهم مع كثرة خصومهم وقوتهم وطغيانهم وتسلطهم على المسلمين، حتى هاجر من هاجر فراراً بدينه من الأذى والظلم، حتى لحق بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم- بأمر الله تعالى إلى المدينة[14] .

ولقد كان للاغتراب والفرقة أثراً عند القدامى، وما من عصر إلاّ واشتكى أدباؤه من حرارة الفرقة ومرارة الغربة، وقد وصف الجاحظ[16] الغريب بقوله: "والغريب النائي عن بلده المتنحي عن أهله كالثور الناد،[17]الذي هو لكل رامٍ قنيصة"[18] ويقول الشاعر:[19]

جسمي معي غير أن الروح عندكم   فالجسم في غربة والروح في وطن

ويدعو ابن حمديس[20] إلى البقاء في الوطن مهما كانت الظروف، ويحث على عدم التغرب، إذ شبهه بتجرع السم في قوله:[21]

وَإِيّاك يوماً أن تُجربَ غربةً   فلنْ يَسْتَجيزَ العقلُ تجْربَــةَ السُمّ

ويشكو الشاعر القروي ألم الغربة وشدة الحنين إلى وطنه العربي فيقول: [22]

ليكاد يقتلني الحنين إلى الحمى   فأعجب لطول إقامتي في صنبل[23]

أمشي كبعض النائمين أو أنني   وسط المدينة هائم في مجهل

الشعراء الليبيون في الغربة

والليبيون كغيرهم من الشعوب تعرضوا لنكبات التغرب وهذا لا يعني أنّ الشعراء هم وحدهم من تغرب عن الوطن، وضاق مرارة البعد عن والأهل والأحبة وعاش في بلاد الغير، بل كل الفئات تعرضت لذلك وبخاصة بسبب مقاومة الغزاة سواً كان في ميادين المعارك أم بالكلمة والفكر- فقد قُبض على عدد من المجاهدين فمن نجا من التعذيب والقتل نُفي قسراً، وهناك من فرّ وتغرب هرباً وخوفاً على نفسه من هذا العدو الدموي الحاقد، الذي لا يعرف إلاّ التنكيل والشنق، وهناك من لجأ للغربة لأجل طلب علم في تونس حيث جامع الزيتونة مثلاً، أو إلى مصر حيث الأزهر الشريف، أو في مدينة تمبكتو بمالي، أو في غير ذلك، ومنهم من تغرب بسبب طلب العيش، وهناك من استقرّ خارج الوطن حتى وافاه الأجل هناك[24] ونظراً لمحدودية صفحات هذا البحث، فقد أُقتصر الحديث عن معاناة شاعرين تغربا بسب الاضطهاد إبان الغزو الإيطالي، وهما الشاعر سليمان الباروني والشاعر أحمد رفيق المهدوي.

الشاعر سليمان الباروني: ولد الشاعر والشيخ الزعيم سليمان الباروني سنة 1290هـ 1873م في بيت من بيوت العلم بمنطقة جادو -إحدى ضواحي جبل نفوسة- فدرس تعليمه الأول فيها، ثم ّرحل للأزهر الشريف ونهل من فيض فقهائه فيه بضع سنين، ثم رحل إلى الجزائر ودرس الفقه الأباضي على يد أجلّ شيوخها، ولما رجع إلى طرابلس ألف كتابه (الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الأباضية) وركب بحر السياسة، فانتخِب عضواً في مجلس نواب طرابلس في العهد التركي سنة 1910م، وعندما غزت إيطاليا ليبيا امتشق سلاحه وتقدم لقيادة المجاهدين في الغرب الليبي، فقاوم العدو مقاومة شرسة، وكان عضواً بارزاً في الجمهورية الطرابلسية سنة 1918م، ولكونه زعيم مقاومة لو قُبض هذا العدو عليه سينتقم منه أيما انتقام، ولكن رعاية الله حفظته فهاجر إلى العراق بعد سيطرة الغزاة على الغرب الليبي سنة 1922م، ومنها انتقل إلى عُمان، وهناك أصيب بمرض عضال مما جعله يطلب الاستشفاء في بلاد الهند، وبعد وصوله بسويعات التقت ساعة وصوله بمكان منيته في مدينة بومباى عاصمة تلك البلاد سنة 1940م[25]، فعليه رحمة الله وجزاه عن شعبه ووطنه الفردوس الأعلى. وهو يعد من رواد الحركة الشعرية الليبية الحديثة، ومن الشعراء الذين واكبوا حركة التجديد في القطر الليبي، وقد لزم المدرسة التقليدية في شعره وهو من تأثر بالغربة عن وطنه فودع وبكى الفرقة والبعد عن الأهل والوطن، ومن جيد شعره في وداع الوطن:[26]

وداعاً يا ديار العز حتى ... أعود إليك في أهنا نهار
أذا ما نحو قطرك مدّ خط ... حديدي إلى تلك القفار
ونور الكهرباء أتاك يسعى ... وقيل الماء في البيداء جاري
وطُهّرت العيون وقام حزب ... بمعدنك النفيس وبالآثار
وشُيدت المدارس واستقامت ... رجالك واكتست ثوب طهر
وخاطب فيك بالتلفون خِل ... يريد البحث عن حال التجار
وحررت الجرائد واستعدّت ... مطابعها إلى نشر القرار
ورقيت المصانع واستفاقت ... شبيبتك الحليفة للديار
وجاب الشهم منها الأرض علماً ... وخاض بحزمه لجّ البحار
وجارى في السياسة من أوربا ... رجال زاحموا قطب المدار
وأبدى الكد مخترعاً مجدّاً ... يجر النقع من تحت الستار
هناك تكون يا وطن المعالي ... غزير العلم مجتمع النظار
يسود المرء فيك ينال عزاً ... يجوز الأمن يطمع في انتصار
ألا يا قوم قد نمتم طويلاً ... وهِمتم في الجهالة بالبراري
فهل من يقظة تشفي غليلاً ... وتمحو ما استوى من سحب عارِ

فَهُمُّوا واصدقوا فالصدق فيكم   عريق واحفظوا حقّ الدّيار

وإلاّ فالوداع وكل قطر   به الإسلام يصلح للقرار

هنا يضع شاعر قصيدته داخل إطار فني، منطلقاً بالتوديع والتمني ويختمها بالدعوة للنهوض وطرد المستعمر فجعل من ذلك كله محاولة لتفريج عن كربة خروجه من الوطن، كونه سيعود يوماً ويراها متحررة في مصاف الدول المتقدمة هذا من ناحية ومن ناحية ثانية جعل تصوّراً لتكوين دولة مدنية حديثة ذات مؤسسات مدنية، حيث يرى في تصور أميته بلاده ليبيا تحرز تقدماً في مجال المواصلات بربط البلاد بخطوط السكك الحديدية، وينعم كل الليبيين بالتيار الكهربائي، وخدمة الاتصالات، ويتدفق الماء في الصحراء وتتحول إلى مروج خضراء، وتنتشر المدارس الحديثة في ربوع البلاد، وتدور آلات المطابع لطباعة الكتب والدوريات التي تعبر عن حرية الكلمة والفكر والرأي، وتتحرر العقول من رواسب الجهل، وتتنور بضياء العلوم المختلفة، فيبرز فيها المبدعون والمخترعون وتدور عجلة الصناعات المختلفة، وينضبط المواطن تحت دستور يساوي بين الناس في الحقوق والوجبات، فيسود الاستقرار والأمان ربوع الوطن، أما الناحية الثالثة فهي كلمة عتاب ولوم وجهها للعرب، الذين غفوا في سبات عميق إلى جانب تمسكهم بالجهل وعدم النهوض بالوطن، فقد أصبحوا لقمة سائغة في فم الأعداء، فيطلب منهم الصحوة والاهتمام بالوطن، وأخيرا يرى إن لم يأخذ الليبيون والعرب جميعاً بما رآه وتمناه فإنه سوف يستقر في أي بلد، فالإسلام والمسلمون في كل دول العالم، وكل ذلك كان من تأثير النزعة الوطنية والدينية في نفس الشاعر، فتلاحظ الشاعر قد بين حبه العميق العظيم لوطنه.

وقد استعمل الشاعر بعض الأغراض البلاغية في قصيدته، فمنها على سبيل المثال الاستعارة في قوله: (اكتست ثوب الفخار) فالفخار ليس له ثوب وإنما الذي يرتدي الثياب هم البشر، فقد شبه الفخار بالبشر وحذف المشبه وأبقى على شيء من لوازمه وهو الثياب على سبيل الاستعارة المكنية، وكنّي في قوله: (بمعدنك النفيس) كناية عن مكانة الوطن الغالية التي لا تقدر بثمن، وجانس جناساً غير التام بين لفظتي (نمتم وهمتم) وغيرها من الأغراض، ويقول في وصف شِعْره الذي أقسم ألاّ يُحْلِقه حتى تتحرر بلده من الغزاة المستعمرين:[27]

هذا هو الشعر الذي   شهد الحروب الهائلات

وعليه أمطرت القنا   بل كالصواعق نازلات

ويقول:

عش أيها الشَّعْر الجليل   مسترسلاً كالسلسبيل

تحكي ظلاماً شقه   قمر له طرف كحيل

تُحي شُعوراً لم يزل   هو الحياة لكل جيل

ومن قوله في الغربة وشدة شوقه وحنينه لأرض وطنه، وقد ورد في رسالة بعث بها من غربته إلى أحد أصدقائه، متمنياً مُضيّ تلك الأيام الحزينة بسرعة؛ ليتحقق أمل رجوعه إلى وطنه وأهله :[28]

ليتها الغربة تَقضي بعجل   ويصير العام شهراً أو أقل

ونرى الشهر كيوم ينقضي   والليالي تنطوي طيّ السجل

هيّن ذاك من وإن كان كما   قيل من أعمارنا ذاك العجل
ساعة تعدل شهراً عندنا   فمتى يا أهل نيل الأمل

ويصف حاله في غربته أيضاً في قصيدة أخرى فيقول:

هي النوائب لي فلا   أرضى بها للجاهلين(29)
العاكفين على اللذ ئذ   في رضاء المشركين
لهم الطنافس والتنافس   بالغوالي والبنين(30)
ولهم معاقرة الخمور   ونقض غزل المسلمين
ولهم بلا حد من الـ   أعداء ما للخائنين
وليَ التغرب في البحار   وفي البراري بالسنين
ولي الجيوب الخاويات   مع الكفوف الطاهرين
ولي التباهي بالوقائع   في كفاح الغاصبين
ولي السيوف المرهفات   الماحيات لكل شينْ
ولي الجياد الصافنات   الصائلات على الدفين(31)
العاديات المُوريات   الغائرات على الكمين(32)
الجاذبات الشاطِحات   لدى اقتفاء الهاربين
هذا الفخار ولا فخار   لغيره في كل دين
فلينهض الأحرار إنْ   راموا نجاة المؤمنين
فمحمد فخر العوا   لم يستَعِينُ ولا معينْ

إذا أمعنا النظر في القصيدة السابقة، اتضح لنا أن الشاعر عقد مقارنة بينه وبين غيره ممن خذلوا أنفسهم، وغرهم الشيطان بحب الدنيا فيقول عنهم: أنهم أحبوا الدنيا ومتاعها من لذيذ عيش زائف وزائل وتفاخر بالمال والبنين، وقد آثروها على دينهم ووطنهم فهم يُعدّون من الخونة والأعداء، ويقول عن نفسه: بأنه آثر دينه ووطنه على تلك الحياة الشيطانية، فهو في سبيل دينه ووطنه عاش ممتشق السلاح يصول بجواده في نقيع معارك الشرف والبطولة، يطارد عدوه، وعاش مرارة الغربة في البر وركوب البحر سنين طويلة فقيراً معوزاً لم يمدد يديه لما حرم الله، وهو الفخر والافتخار، وهو الاقتفاء والاقتداء بسيد المرسلين –صلى الله عليه وسلم- وتلاحظ في القصيدة بعض الأغراض البلاغية مثل الجناس الناقص قي قوله: (الطنافس والتنافس) ومثل الاستعارة التصريحية في قوله: نقض غزل المسلمين، فقد شبه تفرق وتخاذل المسلمين بنقض الغزل فحذف التفرق والتخاذل وهو المشبه، وأبقى على المشبه به، وهو نقض الغزل على سبيل الاستعارة التصريحية، واستعمل الاقتباس القرآني في لفظ الصافنات وهي من قوله تعالى: في سورة ص الآية31 {إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ}، ولفظ العاديات الآية1من سورة العاديات، وكذلك لفظ الموريات الآية2

من السورة نفسها، ومن الكناية قوله: الكفوف الطاهرين وهي كناية عن عدم اكتساب وارتكاب ما حرم الله، وفي قصائد الشاعر بيان واضح لموقفه وهو يودع الوطن والأهل، وقد جعل منها سجلاً يفيض بمشاعره الملتهبة وتصويرٍ صادقٍ لوطنيته والتزامه بشرائع دينه وهي سمات بارزة في شخصيته، أما لغته فتعد لغةً سهلةً وبسيطةً، فكلماتها تودي إلى المعنى المطلوب، لا تكلف القارئ البحث في قواميس لغوية، وكذلك أساليبها سلسة سهلة بعيدة عن ركاكة القول تحافظ على مراعاة النغم وسلامة القافية والسير على نهج الأقدمين في نظام القصيدة وأغراض الشعر.

الشاعر أحمد رفيق المهدوي: ولد الشاعر أحمد رفيق المهدوي في منطقة فساطو -إحدى ضواحي الجبل الغربي- سنة 1898م، ودرس تعليمه الأول في مدينة نالوت، ثمّ انتقل مع أسرته إلى مدينة مصراتة، ومنها إلى مدينة الزاوية، حيث تولى والده قائم مقام المدينة، وفي هذه الأثناء تحصل على الشهادة الابتدائية ورحل إلى طرابلس لدراسة المرحلة الإعدادية، ثمّ رحل إلى مصر، ودرس هناك في أحد المعاهد العلمية، وعند عودته إلى بنغازي التحق بالوظيفة العامة وشغل منصب رئيس مكتب عميد البلدية، واشتغل بالتجارة، ونقم عليه الإيطاليون بسبب وطنيته وتحريضه المستمر على مقاومتهم، فأجبروه على مغادرة الوطن، فسافر إلى تركية عام 1934م، وبقي فيها يعاني آلام الغربة ووحشتها حتى إعلان استقلال الوطن المجيد عام 1951م فاعتلا عضوية بمجلس الشيوخ الليبي آنذاك.[33] وقد عرف في الوسط الأدبي بشاعر الوطن؛ لبروز وطنيته في قصائده، وهو أيضاً كسابقه يعد من رواد الحركة الشعرية الليبية الحديثة، ومن الشعراء الذين واكبوا حركة التجديد في القطر الليبي، وقد لزم المدرسة التقليدية في شعره، وهو ممن تأثروا بالتّغرّب عن الوطن، فودع وبكى الفرقة والبعد عن الأهل والوطن- هو الآخر-، ومن جيد شعره في هذا الجانب قصيدته في وداع الوطن:[34]

رحيلي عنك عز عليّ جدا ... وداعاً أيها الوطن المفدّى
وداعاً مفارق بالرغم شاءت ... له الأقدار نيل العيش كدّا
وخير من رفاه العيش كدا ... إذا أنا عشت حراً مستبدّا
سأرحل عنك يا وطني وإني ... لا أعلم أنني قد جئت إدّا
ولكني أطعت إباء نفس ... أبت لمرادها في الكون حدّا
علو النفس إن عظمت شقاء ... يلذ لمن إلى المجد استعدّا

إلى أن يقول:[35]

وقد يأتي الغيور بما يراه ... خليّ من جوى للعقل ضدّا
فلست أُلام في تركي حبيباً ... أرى في حبه الأعداء ندّا
ويا وطني وداعاً من محب ... تحيّر رأيه أخذاً وردّا
وداعاً لا أظن له لقاء ... فوا أسفاً إذا ما البين جدا[36]
أناديه وقد زمتُ ركابي ... وهد البين ركن الصب هدا[37]
وجاشت تخنق العبرات صوتي ... وداعاً أيها الوطن المفدّى

لقد عبر الشاعر في قصيدته عن شدة ألمه وضيق نفسه بكل قوة وأسف، وهو يجهز أمتعته لشد الرحال ومغادرة الوطن والبعد عنه والهجرة إلى بلد الغير، حتى أنه توقع عدم العودة والموت بعيداً عن الوطن، فكانت تلك اللحظات هي الأصعب عليه، فكانت سبباً في نحيبه تقاطر دموعه، ويرسل من غربته شكواه وآهاته لصديق له داخل الوطن فيقول:[38]

فارقتكم وفؤادي لا يفارقكم قيدتموه بأسباب وثيقات

أهل الوداد وحبي للبلاد هما أسباب تعذيب قلبي واشتياقي

تركت موطن آبائي على مضض مما تجرعت من هم وويلات[39]

والله ما باختياري أن أفارقه لو لم ينغصه حكم الظالم العاتي[40]

إني لأذكر يوم البين إذ هملت مدامعي فوق خدي مستهلّات[41]

....

خرجت من وطني مثل الطريد ودعت خلاً ولا أدركت ثارتي

يا لهف نفسي على تلك الربوع بها ربيع عيشي قد ولى ولذاتي

ما كان أقصره عمراً وأسرعه مرّ كذلك أوقات المسرات

لما استقر الشاعر به المقام في هجرته وجد بيئة تختلف عن بيئته، ولغة غير لغته وطباع أناس تختلف عن طباع ناسه، فكانت وصال الألفة مختلفة ومتباعدة لذلك كان هو غريباً عليهم وهم غرباء عليه، ولم يجد طريقة يلجأ إليها لينفس بها عن كربته، إلاّ الشِّعر الذي وجد فيه سلوته وراحة لبعض معاناته، فأخذ يرسله لأصدقائه وأحبابه لعله يجد من يواسيه ويبعث له ببعض الجمل والعبارات، التي تخفف عنه أكداره وآهاته ولو للحظات من الوقت، ومن مثل ذلك القصيدة التي قالها بعد عام من معاناته من اكتواء الغربة في مدينة جيحان التركية، التي يقول فيها:[42]

تكامل عام منذ فارقت أوطاني فما نلت في أثنائه غير أحزان

فقدت بلادي وهي عندي عزيزة ولم ألقى ما ملت في بلد ثاني

كأني غراب البين ضيع مشيه ولم يكتسب مشي الحمام بإتقان

حنيناً وشوقاً يا بلادي فإنني وإن طال عني العهد لست بخوان

فما كان بعدي عنك ترفعاً عن الضيم لا بغضاً ولا قصد هجران

وإني لأُكمي في الجوانح لوعة لحبك يوريها على البعد تحناني[43]

إذا خففت دمع الأسى فمدامعي لها وقدة زادت أساي وأشجاني

كما كان عذب الماء في الجير منشئاً على خصر فيه حرارة نيران[44]

شبه الشاعر نفسه في خيبة أمله بغراب أرد تقليد الحمامة في مشيها فتخبط وفشل، ويخبر بأنه خرج من بلاده بسبب ظلم المستعمر، وليس بسبب الخيانة أو بسبب جريمة، ولا هجر أو أبغض أهله ووطنه، فهو مهما يخفي جروحه وآلامها فلابد من ظهورها.ومن جميل قصائد غربته قوله في

قصيدة وطني حبيبي [45]:

لم أكن يوم خروجي   من بلادي بمصيب
عجباً لي ولتركي   وطناً فيه حبيبي
وطناً فيه أناسي   وبه مسقط رأسي
لذة العيش الغريب   بين أهل وقريب
وصديق وحبيب
لم أكن يوم خروجي   من بلادي بمصيب
عجباً لي ولتركي   وطناً فيه حبيبي

وتسير القصيدة حتى نهايتها على هذا المنوال، وتعد هذه البكائية ذات تركيبة ملفتة للنظر، فهي متعددة القوافي، وذات مقاطع متوالية كل مقطع يُفتتح بالبيتين الأولين من القصيدة، وهو ما يدل على ملازمة الندم لنفس الشاعر بسبب خروجه من وطنه، هذا من جانب ومن جانب آخر كون هذا التنسيق نوع من التجديد والتحديث في الشعر العربي الحديث، وهو تركيب موفق، مما يجعله يحدث إيقاعاً موسيقياً متوجاً بما بدأت وانتهت به القصيدة، كما أنها إذا بدأت قرأتها من البيت الأخير، واسترسلت في قراءتها، أي من أسفل إلى أعلى، فإن المعنى تجده لا يكاد يتغير، وهو ما يشير إلى ذكاء الشاعر وإبداعه، وبعد خروج الغزاة الإيطاليين من البلاد رجع الشاعر إلى وطنه وأهله بعد غياب امتزج بالمرارة وشدة الشوق والحنين، فاهتز غبطة وسروراً، ووصف ذلك الموقف في إحدى قصائده حيث يقول في مطلعها:[46]

رجع المطوح من بعاده   عاد الغريب إلى بلاده[47]
الحب يفعم روحه   والشوق يلهب فؤاده
وبشائر المستقبل الزاهي   تضاعف من جهاده
ليرى الحياة حرة   هي وحدها أقصى مراده

فالأبيات تعبير صادق عن شعور الشاعر، فهي تفيض بالعواطف الجياشة النابعة من صميم القلب لحب الوطن المغروس في روحه، وقد صاغها في كلمات احتوت معانٍ وأفكار تؤجج عاطفة المتلقي وتجعله كأنه عاش مع الشاعر غربته وتألم بآلامه.

كل تلك القصائد وغيرها من قصائد غربته – وهي كثيرة - جعل منها الشاعر وثيقة فنية ذات دلالة رائعة وانفعالات حارة تعبر عنما تكنه نفسه من شدة العاطفة، التي تمثل عظم حبه لوطنه وأهله وأصدقائه فكانت تجربة أليمة عاشها هذا الشاعر بكل ما تعنيه كلمتا مرارة و أسف من معنى؛ لأنها تعبير وجداني صادق ينم عن الأصالة والتفرد.[48]

وإذا نظرنا لقصائد الشاعر من ناحية فنية نلاحظه قد استعمل في نسج أبياته ألفاظ سهلة وبسيطة لا تحتاج إلى عناية وجهد للوصول للمعنى الدال كما زينها بالصيغ البلاغية المختلفة فكان توظيفاً محاكياً ومصوراً فيه بساطة، فعلى سبيل المثال لا الحصر ورود التشبيه التالي في قوله:[49]

خرجت من وطني مثل الطريد   ودعت خلاً ولا أدركت ثاراتي

أي شبه الشاعر نفسه بالرجل المطرود من قومه
وقوله:[50]

كأني غراب البين ضيع مشيه ولم يكتسب مشي الحمام بإتقان

وهنا شبه نفسه بالغراب المفارق الذي لم يتقن مشيه.
ومن الاستعارة من مثل قوله :[51]

تركت موطن آبائي على مضض مما تجرعت من هم وويلات

فقد شبه الهم والويلات بشيء يُتجرَّع أي يشرب بدون استساغة، وحذف المشبه به وأبقى على المشبه والقرينة الدالة على يراد المعنى لفظة(يتجرع)
ومن مثلها قوله: [52]

الحب يفعم روحه والشوق يلهب فؤاده

ففي الشطر الأوّل (الحب يفعم روحه) كناية عن الغبطة والسرور، وكذلك استعارة فلفظة يفعم بمعنى امتلاء فقد شبه الروح بإناء فحذف المشبه به وترك شيء من لوازمه وهي لفظة(يفعم) وهي القرينة الدالة على سبيل الاستعارة التصريحية أيضاً، و في الشطر الثاني شبه الشوق بالنار وحذف المشبه به وأبقى على المشبه والقرينة الدالة على يراد المعنى الحقيقي لفظة(يلهب) وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية.
ومن مثل الجناس قوله: [53]

لذة العيش الغريب بين أهل وقريب

فقد جانس جناس غير تام بين لفظتي (غريب وقريب)، والحقيقة فإن مثل هذا النوع من الشعر مثل الرثاء يقال والأكباد تتقطع، بل هذا أصدق؛ لأنّ الرثاء يندب وينوح به على الغير، والغريب يبكي ويتقطع به على نفسه، وما حلّ به من بُعد وفراق وما انتابه من ذل وضيم في بلدٍ غير بلده، وهو أيضاً تعبير صادق عن الوطنية وما تشمله من مسقط رأس وحب للديار، وشريطٍ خياليٍّ للذكريات الجميلة في بيئته التي كانت بداية انفتاحه على هذه الدنيا بين أهل وأقران، ولعمري فإنّ مثل هذه القصائد ذات طابع وطني مؤثر في النفوس ومثالٍ صادقٍ لحب الوطن، ولذا يجب أن يدرّس مثل هذا النتاج لطلاب المراحل التعليمية المختلفة، وكذلك السيرة العطرة لمثل هؤلاء الشعراء، كما كانت تدرس في العهد الملكي وبداية العهد السابق[54]؛ لأنّ الناشئة الآن في أمس الحاجة لتعليم معنى الوطنية، التي يفقدها الكثير من أبنا الوطن، الذين لم يتعاطوها في مناهجهم الدراسية، وحتى وإن وجدت لم يُلَ لها اهتمام من قبل المهتمين بالعملية التعليمية في كافة مؤسساتنا التربوية والتعليمية في دولتنا العزيزة ليبيا.

الخاتمة

- الوطنية من أجل المسميات قدسية، وهي ثوب الانتماء من لم يرتده فهو عار أمام الآخرين.
- بين البحث أنّ الشاعرين اللذين خصتهما الدراسة كلاهما عاصر أصعب الظروف التي مرّ بها قطرهما الليبي، وهي فترة الغزو الإيطالي وقد اضطهدا خلاله بسبب جهادهما ضده وهذا الاضطهاد سبب لهما الغربة التي كشفت المعنى الحقيقي للوطنية في نفسيهما، ومن لم يجرب الغربة لا يعرف القيمة الحقيقية للوطن والأهل.
- تبين أن مثل هذين الشاعرين ونتاجهم الوطني خير مثال لتعبير عن الوطنية، ومن ثمّ فهو مادة

خصبة لتدريس مادة النصوص الأدبية في مناهج التعليم المختلفة، فطلابنا في أمسّ الحاجة لمثل هذه المناهج وبخاصة في وقتنا الحاضر لغرس حب الوطن في نفوسهم.

- يجب على جميع المهتمين بالجانب الأدب العربي أن يقفوا على الأدب الليبي وإعطائه شيئاً من الأهمية، فهو مادة خصبة غنية بالوجوه البلاغية والأساليب المتعددة؛ واللغة الرصينة والتراكيب النحوية. كما أنّ الكثير من الشعوب وبخاصة العربية لم تعرف أنّ في ليبيا أدب وأدباء.

الهوامش

1. ينظر التذكار، ابن غلبون، تح الطاهر الزاوي، المدار الإسلامي، ط1، 2004م، 26 وما بعدها.
2. مثل ثورة عبد الجليل سيف النصر 1831- 1842م وثورة غومة المحمودي في 1853-1858م. وثورة عمر المختار على الإيطاليين في الشرق الليبي 1911- 1931م. ينظر: إعلام ليبيا، الطاهر الزاوي، المدار الإسلامي، ط3، 2004م، 202 وما بعدها، و299وما بعدها، و291 وما بعدها.
3. المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني، تيسير بن موسى، الدار العربية للكتاب، طرابلس ليبيا، لاط، 1988م، 25، وما بعدها.
4. مثل والعواصف والمجاعات الجفاف وانحجاب المطر مثلما حدث في سنة 1767م في سنة 1881م، ومنها ما أتت على سنوات متتالية، مثلما ما حدث بين عام 1906م- 1909م. ينظر: مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين، طرابلس –ليبيا، السنة 23، العدد 2، 2001، 72ومابعدها، ينظر : الزاوية الغربية، فاتح رجب قدارة، مركز جهاد الليبيين، طرابلس – ليبيا، 2007م، 22.
5. قصة الأدب، محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجبل، بيروت، ط1، 1992م، 242.
6. السابق، 224.
7. فعلى سبيل مثال الشاعر سليمان الباروني 1870- 1940م الذي أسس مطبعة الأزهار البارونية وصحيفة الأسد الإسلامي في القاهرة 1907م، ونشر نتاجه الشعري والنثري فيها. ينظر: السابق، 360. وكذلك الشاعر أحمد فؤاد شنيب أسس مجلة الينبوع في دمشق ونشر فيها نتاجه. ينظر: ديوان معزوفة على قثارة الوطن، مجلس الثقافة العام، ليبيا، لاط، 2006م، 119.
8. مجمع الأمثال، النيسابوري، تح محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لاط، لات،1 / 229.
9. الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجبل بيروت، لاط، 1996م، 1 / 38.
10. السابق 7 / 253.
11. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة غ ر ب.
12. المستقصى في أمثال العرب الزمخشري دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987م، 1 / 183.
13. رواه مسلم (145).
14. موقع الإسلام سؤال وجواب، إشراف الشيخ محمد صالح المنجد، 3/7/ 2003م
15. أبو عثمان عمرو بن بحر الشهير بالجاحظ = 780 - 869 م): كبير أئمة المعتزلة في الادب،

ينظر: الأعلام، خير الدين الزركلي در العلم، بيروت، ط15، 2002 (5/ 74)
16. الناد = الشارد عن القطيع. اللسان مادة: ن و د.
17. الحنين إلى الأوطان، الجاحظ، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1982م، 8.
18. ينسب هذا البيت في أغاني الأصفهاني إلى أحمد بن يزيد ونسبه البعض الأخر إلى أبو عُيينة محمد المهلبي. ينظر: الأغاني، أبو فرج الأصبهاني، دار الفكر بيروت، ط2 لات، 20/ 113.
19. هو الشاعر أندلسي عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الازدي الصقلي (527 ه =1133 م)، اشتهر بوصف الخيل، ومدح المعتمد بن عباد، فأجزل له عطاياه. الأعلام لخير الدين الزركلي (3/ 274.
20. ديوان ابن حمديس الصقلي، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، لبنان، 1960، 416 .
21. ديون القروي رشيد سليم الخوري، ليبيا، لاد، لاط، لات، 497.
22. يقصد مدينة سنباولو البرازيلية مقر العصبة الأندلسية، وكان رئيسها اثاني الشاعر القروي بعد ميشل معلوف .
23. مثل الشيخ أحمد بن عبد الله الرجيبي والشيخ احمد الشريف السنوسي والشيخ السنوسي بادي، وغيرهم كثر. ينظر: أعلام ليبيا، الطاهر الزاوي، دار المدار الإسلامي، ط3، 2004م، 74، 79، 177.
24. ينظر: السابق 173 وما بعدها، وينظر: معجم الشعراء الليبيين، عبد الله مليطان، دار مداد، ط1، 2008م، ج1/ 91.
25. ديوان سليمان الباروني، تجميع: زعيمة الباروني، دار لبنان، لاط، لات، 73.
26. سليمان باشا الباروني، سليمان النفوسي، جمعية الفتح، ط1، 2013م، 87 وما بعدها.
27. السابق، 91.
28. النَّوائِبُ =جمع نائبةٍ وهي ما يَنُوبُ الإنسانَ أي يَنْزِلُ به من المُهِمَّات والحَوادِثِ ومصائب. اللسان مادة: ن و ب.
29. الطنافس= ج الطُّنْفُسة وهي بضم الفاء النُّمْرُقَة فوق الرحل وقيل هي البِساط الذي له خَمْلٌ رقيق، وكذلك الإنسان إذا لبس الثياب الكثيرة مُطَرْفِسٌ ومُطَنْفِس. ينظر اللسان، مادة: ط ن ف س.
30. الصافنات= الصَّافِنُ من الخيل القائم على ثلاث قوائم وقد أقام الرابعة على طرف الحافر.السابق، مادة: ص ف ن.
31. الموريات= من المَوْرُ وهو السرْعة. السابق، مادة: م و ر.
32. ينظر: معجم الشعراء الليبيين، عبد الله مليطان، دار مداد، ط1، 2008م، ج1/ 113.
33. ديوان شاعر الوطن الكبير، أحمد رفيق المهدوي، الفترة3، المطبعة الأهلية، بنغازي، ط 1، 1962م، 52.
34. السابق، 54.
35. البين = الفراق. السابق مادة: ب ي ن.
36. زمّ الركب = مسك بمقود الدابة. السابق، مادة: ز م م.
37. ديوان احمد رفيق، الفترة 3، 1ما بعدها.
38. المضض = من المَضُّ وهو الحُرْقةُ. اللسان، مادة: م ض ض.
39. النَّغَصُ= كَدَرُ العيش. السابق، مادة: ن غ ص.
40. البين= الفراق. السابق، مادة: ب ي ن.

41. ديوان احمد رفيق، الفترة 3، 7 ما بعدها.
42. أكمي= اخفي. اللسان، مادة: ك م ى.
43. خَصِر= برد. السابق، مادة: خ ص ر
44. ديوان احمد رفيق، الفترة 3، 117ما بعدها.
45. ديوان احمد رفيق، الفترة 4، 2 ما بعدها.
46. المطوح= الذي اجبر على ترك وطنه. اللسان مادة ط و ح.
47. ينظر : رفيق شاعر الوطن، خليفة التليسي، انتربرنت، مالطا، ط3، 1976م.
48. ديوان احمد رفيق، الفترة 3، 1ما بعدها.
49. ديوان احمد رفيق، الفترة 3، 7 ما بعدها.
50. ديوان احمد رفيق، الفترة 3، 1ما بعدها.
51. ديوان احمد رفيق، الفترة 4، 2 ما بعدها.
52. ديوان احمد رفيق، الفترة 3، 117ما بعدها.
53. ينظر على سبيل المثال كتاب الأدب والنصوص المقرر للصف الثالث ثانوي للعام الدراسي 1977 -1978م.

المصادر والمراجع

1- التذكار، ابن غلبون، تح الطاهر الزاوي، المدار الإسلامي، ط1، 2004م.
2- إعلام ليبيا، الطاهر الزاوي، المدار الإسلامي، ط3، 2004م.
3- المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني، تيسير بن موسى، الدار العربية للكتاب، طرابلس ليبيا، لاط، 1988م.
4- الزاوية الغربية، فاتح رجب قدارة، مركز جهاد الليبيين، طرابلس – ليبيا، 2007م.
5- قصة الأدب، محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجبل، بيروت، ط1، 1992م.
6- ديوان معزوفة على قثارة الوطن، مجلس الثقافة العام، ليبيا، لاط، 2006م.
7- مجمع الأمثال، النيسابوري، تح محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، ل
8- الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجبل بيروت، لاط، 1996م.
9- : لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، ط2، لا ت.
10- المستقصى في أمثال العرب الزمخشري دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987م.
11- موقع الإسلام سؤال وجواب، إشراف الشيخ محمد صالح المنجد، 3/7/ 2003م
12- الأعلام، خير الدين الزركلي در العلم، بيروت، ط15، 2002م .
13- الحنين إلى الأوطان، الجاحظ، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1982م.
14- صحيح مسلم، 145.
15- الأغاني، أبو فرج الأصبهاني، دار الفكر بيروت، ط2 لات.
16- ديوان ابن حمديس الصقلي، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، لبنان، 1960.
17- ديون القروي رشيد سليم الخوري، ليبيا، لاد، لاط، لات.
18- معجم الشعراء الليبيين، عبد الله مليطان، دار مداد، ط1، 2008م،.
19- ديوان سليمان الباروني، تجميع: زعيمة الباروني، دار لبنان، لاط، لات.
20- ديوان شاعر الوطن الكبير، أحمد رفيق المهدوي، الفترة3، المطبعة الأهلية، بنغازي، ط 1، 1962م.
21- رفيق شاعر الوطن، خليفة التليسي، انتربرنت، مالطا، ط3، 1976م، 124.

22-ينظر على سبيل المثال كتاب الأدب والنصوص المقرر للصف الثالث ثانوي للعام الدراسي 1977م/ 1978م.